الوحيد (التراث) للتمسّك بالهوية العربية. فنحن في «زغاريد الانتفاضة» ازاء هذا الحس القومي المتوثّب، النابع من التراث والملامح الشعبية. فالبطل، هنا، ليس شخصاً بذاته «رغم اننا لا نعدم ابطالاً كثيرين...»، وانما البطل هو الانتفاضة نفسها، لتتسع دوائر الأفعال الايجابية حتى نصل الى المقاومة المسلّحة.

لقد أطلق محمد وتد «زغاريده» في بانوراما شاملة في عوالم التجربة النضالية المتجددة في الانتفاضة الشعبية، «فعكست حالة اسطورية راقية تجسّدت في عزيمة ابطالها وبطولاتها الخارقة التي وإنْ أدّت الى الموت، الاّ انها تظل تمثّل لعبة جماعية تلعبها الارادة في جموحها المتوهج مع ذاتها».

غير ان شحاتة راضي في روايته «الجراد...» بدا أكثر حرصاً بقيمة هذا التراث، بوجهه الشعبي؛ ومن ثمّ فهو استخدم، منذ البداية، ذلك الشكل الملحمي المعروف في التراث الشعبي بـ «السيرة الهلالية».

والمعروف ان الملحمة عند العرب ليست غير تعبير قومي. وهي، لذلك، تستلهم، دائماً، ماضياً قومياً وبطولياً وجذوراً تأسيسية. انها تمثّل عالم بدايات وأزمنة قمم، عالم الآباء المؤسسين. وانها لمفارقة خصبة ان يكون «الآباء المؤسسون للسيرة الفلسطينية هم أطفال الانتفاضة وشباب الثورة في احضان قدامى المحاربين بطبيعة الحال»[٢١]. ان نصّور وبركات هما استمرار، على أعلى مستوى، لعجاج والبرجاوي. وينطبق ذلك على سيرة عنترة وحمزة العرب والظاهر بيبرس والاميرة ذات الهمة. كما ينطبق، بوضوح، على السيرة الهلالية: بطولات قومية في مراحل مختلفة من التكوّن ضد التمزّق الداخلي في مواجهة الاغتصاب الاجنبي، سواء الفرس، أو الغارات الرومية، أو التتار، أو الصليبيين، أو الصليبيين الجدد الآن ـ الصهيونيين. ويمكن ان نمضي في ذلك أكثر، حين نوغل في لعبة التناظر والتشابه، لنرى الى أي حدّ تمثّلت الرواية السيرة الملحمية وعبّرت بها عن الراهن عبر نص يمضي الى صيرورة اسطورية، لكنه لا يجاوز الواقع قط.

الأغاني الوطنية

والأغاني الشعبية في الارض المحتلة لم تنل الاهتمام الكافي حتى اليوم. فالى جانب انها تضرب في جذور التاريخ، فهي تضرب، كذلك، في جذور النفس البشرية، في مواجهتها لقوى الاحتلال. انها نتاج هذا المد الشعبي بكل ما فيه. ويلاحظ، هنا، أن الأغنية الشعبية تتحلق، في المقام الاول، حول الشهيد. فهو يقابل بنازعين: الأسى والفرح، البكاء والزغاريد. نحن، اذاً، أمام أغاني شعبية تقترب من نبرة «التعديد» في الريف العربي. ان «زغاريد الانتفاضة» هي العزاء الذي يعيش فيه أهل خربة الزبداوي أمام رحيل «ابو العبد»، وفي «الجراد...» أمام الموقف المروّع الذي يقفه أهل مدينة مثل نابلس أمام رحيل أشجع ابنائها نصّور، في اثناء تظاهر طلبة جامعة بيرزيت في مواجهة العنت الصهيوني. اننا، هنا، أمام التياع الأم التي تتمتم بأسى بعد اهالة التراب على جسد الابن ـ الشهيد:

«يا دار يا دار لوعدنا كما كنّا... كما كنّا... لطليك يا دار بعد الشيد بالحنّا... بالحنّا...».

ومع توالي أيام الانتفاضة، وسقوط الشهداء، هدر صوت نفّوس، الزوجة الفلسطينية الصابرة، فيما يشبه «التعديد»: «وأنا لا أبكي عليهم طول عمري... على اللي ما زعلوني بطول عمري...».

ويتوالى الحس الشعبي الملتاع في فورة انتفاضة جديدة، فيسقط نصور. فهذا الشاب الذي استشهد في «الجراد...» يمكن ان تعبر عنه القريحة الشعبية المكلومة. فبينما يصيح الآخرون: